ميخائيل باختين الناقد الثقافي: ديموقراطية الكلمة.. السرديات البديلة تأمّلات في المنظور ما بعد الكولونيالي

د/شهرزاد توفوتي
جامعة بومرداس

ملخص:

تعتمد هذه الورقة البحثية منطلقات ميخائيل باختين النظرية التي اتخذها لصياغة مفاهيمه حول نظرية الرواية، وفي الوقت نفسه تشير إلى كون باختين أنموذج لناقد المنفى، تعمل أفكاره ضمن منظور ما بعد الكولونيالي من خلال فعل الكتابة بديلا عن الوطن المفقود وتشكيلا لوطن متخيّل.

تكمن أهمية هذه الورقة في أنها لا تستعرض القضايا المتعلّقة بالجنس الروائي التي أثارها باختين، كما لا تبقى في حدود قراءة النص الباختيني المحصور في إطار نظرية الرواية، وإنّما استنتاج ما تضيفه هذه النظرية من تصوّرات تأبى القطيعة مع مفاهيم الهوية والآخر المستبد والمثقف والسلطة.

Résumé:

Cet article est fondé sur les démarches théoriques que Bakhtine avait adoptées pour reformuler ses concepts sur la théorie du roman, de même qu'il indique que Bakhtine est l'exemple de la critique littéraire postcoloniale d'exile en ayant recours a l'écriture comme alternative de la patrie perdue et en construisant une patrie imaginaire .

Cependant, l'importance de ce travail de recherche réside à ce q'il ne traite pas les questions relatives au genre littéraire que Bakhtine lui même avait soumises, et dépasse la lecture du texte Bakhtinien limitée par une théorie de littérature, il déduira plutôt la valeur ajoutée de cette théorie qui rejette la séparation de ces concepts: l'identité et l'autre tyran, l'intellectuel et le pouvoir.

تعتمد هذه الورقة البحثية منطلقات باختين النظرية التي اتخذها لصياغة مفاهيمه حول نظرية الرواية، وفي الوقت نفسه تشير إلى كون باختين أنموذجا لناقد المنفى، تعمل أفكاره ضمن منظور ما بعد الكولونيالية من خلال فعل الكتابة بديلا عن الوطن المفقود وتشكيلا لوطن متخيّل.

تكمن أهمية هذه الورقة في أنها لا تستعرض القضايا المتعلّقة بالجنس الروائي التي أثارها باختين، كما لا تبقى في حدود قراءة النص الباختيني المحصور في إطار نظرية الرواية، وإنّما استنتاج ما تضيفه هذه النظرية من تصوّرات تأبى القطيعة مع مفاهيم الهوية والآخر المستبد والمثقف والسلطة.

تطرح هذه المقاربة أكثر من تساؤل وتقف أمام قضايا عديدة تضمنتها مؤلّفات باختين النقدية، ومن هذه المساءلات: لماذا ميخائيل باختين الآن؟ ما الإضافة التي جاء بها هذا المفكّر الروسي؟ وهل يمكن قراءة باختين في ضوء الدرس الثقافي من خلال مقولات: التعددية الصوتية والحوارية والكرونوتوب؟

لا نروم من خلال هذه المساءلات الإجابة السريعة والمتعجّلة في آن واحد، لأنّ غايتنا لا تنحصر في ذلك، وإنّما يهمّنا محاولة وضع بعض مقولات باختين النظرية في سياقها الثقافي وإعادة قراءتها بأدوات منهجية تتواشج مع تيارات النقد الثقافي، من قبيل النقد ما بعد الكولونيالي وعلاقة الرواية بمسرودات الشتات والنفي التي تعكس صور الذات التي طالها الاستبداد بشتّى صنوفه الفكرية والمادية.

تتبطّن منظومات ميخائيل باختين مجموعة من التصورات والأسس النظرية صاغها في شكل حوار مع مستخلصات الفنون والعلوم، حيث نبعت كتاباته حول التعددية الصوتية والكرونوتوب ومفهوم البطل من حقول معرفية مختلفة استعار منها مفاهيمه النظرية ونقلها من ميدانها الأصل ثم استنبتها في حقل معرفي جديد.(*)

ظهر باختين في سياق ثقافي وسياسي يتّسم بالجمود والتحجّر بسبب الحكم الستاليني الذي لم يكن يتّسع إلاّ للتيارات الدّعائية، كالتيار الإيديولوجي الجدانوفي(*)الذي كان مهيمنا على الساحة النقدية والثقافية بالاتحاد السوفياتي. وقد كان لزاما على باختين قبل شروعه في صياغة نظرية الحوارية من نقد التيارات الإيديولوجية خاصة تلك التي لم تهتم بالعلاقات بين مكوّنات العمل الأدبي وتأسيس تصوّر جديد.

1/ مفهوم الرواية في الدرس الثقافي الباختيني: نحو منظور ما بعد الكولونيالية:

وصف ميخائيل باختين الرواية بأنها فنّ لا شكل له وهي في صيرورة دائمة، ويبدو من خلال هذا المنظور أنّ الرواية جنس لم يكتمل بعد وهي دائما قيد التشكّل، وعلى هذا الأساس إنّ الجنس الروائي لا يمكن أن يُفهم استثناء إلاّ بوصفه تنظيما أوركستراليا للغات المختلفة للحياة اليومية في نوع هجين بشكل عام.

لكلّ تظاهرة لفظية هامة اجتماعيّا، القدرة على أن توِصل أحيانا لأمد طويل ولبيئة واسعة، نواياها إلى عناصر اللغة المدمجة في مقاصدها الدلالية والتعبيرية، وعلى أن تفرض على تلك العناصر تلوينات محدّدة من المعاني والنبرات ذات القيمة المحدّدة. هكذا يمكن خلق الكلمة –الشعار، والكلمة-الشتيمة، والكلمة-الإطراء"(1). نعثر في هذا الملفوظ إشارات باختين إلى مفهوم تعدد الثقافات التي تتشعّب ولا تبقى في حدود الخصائص الفردية للذات المتكلّمة "ففي كلّ فترة تاريخية من الحياة الإيديولوجية واللفظية، وهي بدورها تتباين حسب الطبقة الاجتماعية والمؤسّسة المدرسية... إنّها جميعها نموذجية اجتماعيا مهما يبلغ وسطها الاجتماعي من الضيق والمحدودية"(2) ، كما إنّ الكلمة لا تكتسي من خلال تفاعلها المستمر مع كلمات الآخرين هوية بل تبط تحتها حوارية ممتدّة مع أزمنة غابرة وأخرى معاصرة لها، وهذا ما يخرجها من طابعها الفردي الضيق ليمنحها فائضا من الحرية عبر تشابكها الحواري "إنّه التعايش المجسَّد للتناقضات الاجتماعية-الإيديولوجية متوزّعة بين ماض وحاضر، وبين مختلف فترات الزمن الماضي ومختلف الفئات الاجتماعية-الإيديولوجية للزمن الحاضر، ومتوزّعة بين تيارات ومدارس "(3) فجميع لغات التعدّد اللساني، مهما تكن الطريقة التي فرّدت بها، هي وجهات نظر نوعية حول العالم وأشكال لتأويله اللفظي، ومنظورات غيرية دلالية"(4).

تمثّل الرواية بالنسبة لميخائيل باختين الحرية، لأنّها أكثر الأجناس الأدبية تحرّرا من الشكل وأكثر هذه الأجناس تمرّدا ضدّ مفهوم المؤسسة الأدبية. وقد يفيدنا هذا الطرح عند ميخائيل باختين -أحد منظّري الرواية- لتأكيد أهمية ما صاغه من مفاهيم تتصل بالحوارية والكرنفال وتعدد الأصوات وعلم عبر اللسانيات والكرونوتوب، وغيرها من المفاهيم التي تتعالق مع مفهوم النقد ما بعد الكولونيالي، التي تمثّل أساس نظرياته التي صاغها لمقاربة الخطاب الروائي، اقترح من خلالها منظورا نقديا يوازن بين الجمالي والثقافي، فمن الناحية الجمالية قدّم باختين مفهوما مرنا للرواية يتجاوز قيود الشكل وهيمنته، ومن الناحية الثقافية تتدثّر الرواية -من حيث هي سرد له شعريته-بالاجتماعي والذاكرة، لتشكّل ثالوثا متداخلا بين: الجنس الأدبي، والأسلوب، والهوية.

يثير مفهوم ما بعد الكولونيالية إشكالية الخطاب الموجّه لتفكيك خطاب المستعمِر، وقد نشأ هذا الخطاب في أعمال جماعة التابع الهندي حيث اهتمّت بالتعبير الشعوب المستعمَرَة، وغاية ذلك إيصال صوت المضطهدين من خلال خطاب موجّه للآخر(*).

انطلق ميخائيل باختين في تصوّره لشعرية الرواية على أساس وجود حوارية تنبثق عنها تعدّدية صوتية قابل فيها بين الصراع بين الصوت الواحد الذي يميل نحو المركز وفعالية الأصوات الغيرية الموسومة بأشكال الجدل والتناقض والهجنة اللسانية، وعلى هذا الأساس الذي يتضمّن في طيّاته مفهوما للمقاومة تعيش اللغة الروائية "حقيقة وتصارع وتتطوّر داخل التعدّد اللساني الاجتماعي، "(5)، ولأجل ذلك ألحّ باختين على المظهر الغيري الدلالي لخطاب المتكلّم،لأنّه القوة التي تنضّد اللغة، فدراسة "الخطاب في حدّ ذاته دون معرفة أيّ شيء يتطلّع خارجه... إنّما هي رأي متعدّد اللسان حول العالم". (6)

اقترح ميخائيل باختين مفهوم الخطاب الذي يعنى باللغة من حيث هي ملفوظ يتضمّن ذواتا متحدّثة وكاتبة ويتضمّن من ثمّ قرّاء ومستمعين في سياقات اجتماعية وثقافية، وهو من خلال هذا الطرح يختلف عن مفهوم النسق المغلق للغة الذي طرحه البنيويّون، بل إنّ العلامة لدى باختين ليست عنصرا محايدا، وإنّما بؤرة للجدل والتحاور والتناقض الاجتماعي تتخذ أشكالا وصورا تختلف باختلاف السياق.

ومن خلال هذا الفهم المغاير للغة يكون باختين قد تجاوز ذلك الفهم الشكلاني الضيق للنص، إلى رحابة الخطاب. كما تجاوز اللسانيات إلى عبر اللسانيات حين"اهتمّ بالجوانب المتشظية من الدلالة.

2/ الكرنفال لغة الجسد المقاوم: التمثيل الساخر

من النظريات الغربية التي تناولت التعبير الفني الجمالي وكذا الإيديولوجيا في الخطاب الأدبي النظرية الكرنفالية لباختين، إذ إنّ من أطرف الأساليب التي تبرز القضايا هو الأسلوب الساخر الذي يسميه المحاكاة الساخرة.

يعدّ الكرنفال حدثا شعبيا يتوجّه ضدّ الثقافة الرسمية السائدة، سماته الازدواج القيمي وتعدّد الأصوات والضحك. وهو ثقافة فرعية نقديّة تشكّك طقوسها في الأخلاق السائدة والمعايير المتبعة، تقدّم في سياق كاريكاتوري هزلي وبذلك فإنّ الكرنفال غير مفصول عن السياق الاجتماعي كما إن الأزمنة فيه تتداخل فالحاضر والماضي يشكل موضوعا لضحك مزدوج يبعث للسرور والهدم في آن واحد، يملك الضحك القدرة على تقريب الشيء وإدخاله في دائرة الاتصال الفضّ مما يتيح إمكانية التشريح والفضح.(7)

إنّ الضحك يزيل الخوف والاحترام أمام الشيء وأمام العالم ويجعل منه موضوع اتصال مألوف. وإنّ جعل العالم مألوفا بواسطة الهجاء واللغة الشعبية هو مرحلة ضرورية على طريقة الإبداع الحرّ، والضحك يحافظ على الوضع القائم ويهدمه في آن عبر إشاعة الثقافة النقدية التي تتوسّع وتنتشر والإزدواج القيمي يرفض القيمة المطلقة ويجعل كلّ قيمة نسبية. وهنا تنشأ علاقة جديدة تعكس رؤية جديدة للعالم تتأسس على الهجاء الرصين للواقع تجمع بين الأصوات المتعدّدة حيث يعبّر كل صوت عن وجهة نظره.

وإذا تأملنا كتابات باختين حول رابلي تتجلّى أهمية الكرنفال من حيث هو ظاهرة تواجه الثقافة الرسمية بكلّ أشكال تسلّطها وحدودها الفارقة ولغتها الصارمة، وهذا ما جعل باختين يهتمّ بالرواية ذلك الجنس الأدبي المتمرّد الذي يتمثّل أشكال وتيمات وأصوات وثقافات الآخر المهمّش، أو المستبعد، أوالمتسلّط أو المستعمِر، أو الآخر المختلف بشتى أشكاله.

يقوم الكرنفال على أساس زمن بديل عن زمن الوضع الرسمي المهيمن، وتلغى كلّ أشكال الاحترام والتبجيل، وحسب منظور باختين يتخذ الكرنفال شكلا من أشكال الخطاب في الحياة، كما تلغى كلّ القوانين والمحظورات وتقف الأجساد في احتفالية لا تميّز بين العبد وسيّده ويواجه المستعمَر المستعمِر، فيسود نسق كرنفالي مغاير تماما يخلق اتصالا إنسانيّا بين البشر والعالم، اتصالا حرّا بعيدا عن الكلفة والمسافات المصطنعة والزائفة.

ركّز باختين على أهمية المحاكاة الساخرة في تحقيقها الحوارية وتضمين أقوال الغير بطريقة ساخرة حيث "يتمّ التقليد في صورته القصوى للغة طبقة اجتماعية، لدرجة أن يعتقد القارىء أنّ المتحدّث هو فعلا شخص موجود في الواقع ويستحيل أن يكون من تأليف الكاتب كما يستحضر المحكي أحيانا الفصاحة البرلمانية أو القانونية واستطلاعات الجرائد واللغة الجافة لرجال الأعمال في المدينة، بغرض محاكاة أسلوب في الكلام وتقديمه بطريقة ساخرة فهذا الأسلوب الذي تمّت محاكاته يعكس نمطا في العيش وفق الموضوع المشخّص "(8).

يرى ميخائيل باختين ضرورة إلغاء كلّ الروابط المرتبة الكاذبة والقائمة بين الأفكار والأشياء لأنّ هذه الروابط تشوّه لوحة العالم وتغيّب حقيقة صورته "إنّ رفع قناع المثالية الذي يفصل بين الأشياء أمر ضروري من أجل تحرير كلّ الأشياء وتركها تدخل في مزاوجات حرّة تتفق وطبيعتها مهما بدت هذه المزاوجات غريبة من وجهة نظر الروابط التقليدية والمألوفة"(9) فترك الأشياء حرّة يخلق مجاورات جديدة بينها وذلك عن طريق التعبير الحرّ وبما تتيحه الكتابة الروائية من خلال العوالم التي يخلقها الكاتب. فالضحك الذي يثيره مشهد فولكلوري لدى المتلقي يهدم في ذهنه روابط تقليدية تفسح المجال نحو رؤية ما كانت رؤيته محظورة، "إنّ نسق الجسم الإنساني الذي بلوره رابلي في رواياته هو حسب باختين "نسق مرتبط برؤية نقدية لثقافة سادت عالم القرون الوسطى أنكرت حياة الجسم وصار بين الكلمة والجسم انقطاع، ولتحقيق الصلة بينهما "عرض رابلي كلّ أعضاء جسم الإنسان عرضا فنيا يتجلّى من خلاله عمق حياته وتكون نتيجة هذا العرض تشكيل دلالة جديدة لجسم الإنسان تتمثّل في تشخيصه.يشكّل هذا العرض مقياسا للعالم، فهو لوحة نقدية تحتوي على معارضة الجسمانية القديمة.(10)

احتفى باختين بنصّ رابلي الروائي الموغل في الضّحك وهو على يقين أن المقصود بالضحك ليس ذلك الفعل البيولوجي والسيكوفيزيائي، بل الضحك "في وجوده الاجتماعي التاريخي الثقافي المجَسَّد موضوعيّا في التعبير الكلامي".(11) فاللغة يمكن استعمالها استعمالا مجازيّا يغيّر مجرى طبيعتها الأولى من خلال السخرية والمحاكاة الساخرة.

تتضح المصادر غير الأدبية بالنسبة لعالم رابلي الروائي وهي لا تخرج عن دائرة الكلام غير الرسمي الزاخر بالشتائم والبذاءات التي استقاها من كلام الفئات المهمشة من سكان الأرياف والطبقات الاجتماعية الدنيا، لكنها مشحونة بوجهات نظر حول العالم وعلى أهبة الصراع مع الآخر فالكلمات والأشياء نفسها مجنّدة للمقاومة.

3/السرد وقوّة السرد المضاد

يرتبط التمثيل للآخر بمفهوم الردّ والمقاومة، وبهذا المعنى فالدراسات الثقافية تفصح عمّا تحمله الثقافة من أنساق اجتماعية وسياسية قد تكرّس الهيمنة. أطلّ ميخائيل باختين من خلال نصوصه النقدية فيما يخصّ نظرية التفاعل اللفظي والحوارية وقراءة التعددية الأسلوبية للرواية. صاغ باختين مفهوم الأنا ولآخر، حيث لا تتعرّف الأنا على ذاتها إلاّ من خلال الآخر، وهنا يبدو جليّا تشديد باختين على حوارية العلاقات بين البشر. وهذا ما جعل باختين يرى أنّ المبدأ البديل هو النظر للرواية بوصفها تشكيلا لغويّا خاصا يستمدّ مزيّته من تصويره للعوالم التخييلية المعقّدة، "تلك الرؤية التي قد تلتقي أو تختلف مع غيرها من رؤى الأصوات الأخرى، وهذا بالطبع يتيح للنصّ الروائي الثّراء والغنى في مستوى الإيحاءات، والدّلالات التي تترك الباب مفتوحا أمام التأويلات"(12).

ثمة نوعان من الخطاب، خطاب المستعمر والخطاب المضاد له، ويبدو اهتمام باختين بتحليل خطاب ما بعد الكولونيالية من خلال التركيز على قوة لغة السرد مزدوجة الصوت وفعاليتها من ناحية جمالية لكشف أنماط العلاقات المتوترة بين الذات المستعمرة والآخر المهيمن، ويكون الحوار أنجع طريق لمحافظة الذات على هويتها. إنّ أغلب هذه المفاهيم التي ولّدها فهم

باختين لطبيعة الخطاب الروائي خاصّة، والخطاب الأدبي بصفة عامة، لم يختلف في كثير من أوجهه عن جوهر نقد ما بعد الكولونيالية، ونعني أفكار إدوارد سعيد، وفرانز فانون، هومي بابا، التي اهتمت بتحليل الخطاب الروائي بالدرجة الأولى،"تهدف إلى نقض خطابات المركز المهيمن...أو الطغاة المستبدّون اقتصاديّا وثقافيّا"(13). ولتحقيق هذا المأرب النقدي توغّل باختين في ثنايا كتابات رابلي الساخرة وقدّم الوجه الآخر للعالم من خلال الفن وبالأحرى عرض تاريخ الضحك، فكان الإنسان بؤرة اهتمام رابلي من خلال شخصيتي (بنتاغرويل وبنتاغرويل). أتقن رابلي رسم شخصياته من رجال الأعمال وأصحاب الحرف ممن شاهدهم في ساحة تراكو،"كان يتحدّث بلهجتهم ويحلّل عواطفهم ويفهم أفكارهم... أتيحت له فرصة ملاحظة الناس والأمراء في السلم والحرب، ما بين فرنسا وإسبانيا ومقاطعات شمال إيطاليا وتركيا وفينا وألمانيا، وأجواء الحرب كانت تحجب الأفق آنذاك، والأمور تجري في دوّامة مستمرّة من سفك الدماء، وقرّر مواجهة كلّ هذا الصخب والعنف والضجيج بالضحك لا الغضب كما فعل في الفصل الثالث والثلاثين من بنتاغرويل"(14).

لقد عانى ميخائيل باختين طيلة حياته من التهميش، والترحال الدائم من المنافي، من "موسكو إلى جزر سولوفتسكي في الشمال السوفيتي وقزخستان وسارانسك، بحثا عن الوطن المفقود، كما عانت كتاباته من الوضع نفسه حتى نهاية الخمسينيّات من القرن العشرين"(15)

اقترح باختين نوعا روائيا جديدا هو الرواية متعددة الأصوات، وهو نوع يعكس مزيجا من اللغات واللهجات والأجناس الأدبية وغير الأدبية المتنوعة، إضافة إلى خطابات هجينة ومتعددة، كما تتيح هذه الخاصية للكاتب مقاربة العالم الروائي من الخارج أي من منظور لغة أخرى فالرواية تحتاج لدراسة أسلوبية مغايرة كلّ متكلّم بالإضافة إلى أنّه شخص، يمثّل بالدّرجة نفسها شريحة من الناس (16).

على أساس التجابه الحوارية بين الملفوظات غير المتجانسة، أعطى باختين مخطط تأويل جديد للثقافة التي تتشكّل من الخطابات التي تحتفظ بها الذاكرة الجمعية، لكن اللافت للانتباه أنّ هذا المزيج بين اللغات الذي أطلق عليه باختين مصطلح التهجين هو شرط أساس في الرواية متعددة الأصوات، يقول باختين: " إنّه مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، وهو أيضا التقاء وعيين لغويين مفصولين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي أو بهما معا داخل ساحة الملفوظ ولابدّ أن يكون قصديا"، (17) وقد أشار محمد برادة إلى أنّ التهجين عند باختين لا يقترن بأيّة دلالة سلبية بل يصبح التهجين عنده عنصرا إيجابيّا مولّدا للجديد، .ينظر: ميخائيل باختين، فصل الخطاب الروائي، تر/محمد برادة، رؤية للنشر والتوزيع، 2009، ص50 بمعنى إنّ الكلمة في الرواية ذات حمولة اجتماعية وهي في الوقت نفسه ذات طابع أجنبي. يعمد الكاتب إلى تفكيك لغة الآخر خدمة لمقصديته الفنية، فتصطبغ لغته بصبغة أجنبية وفق منهجية حوارية. نفهم من خلال هذا المنظور الجمالي أنّ الحوارية سبيل لإنتاج المعنى في العالم، وهي مرتبطة بالشروط السوسيو-تاريخية للمتكلمين.

إنّ الطابع الهجين للرواية وكذا الطبع الحواري للغة يضعنا أمام عديد الهويات وليس هوية واحدة، إذ تنفتح الرواية على أنواع أدبية وغير أدبية وهذا ما يمكننا من تصنيف باختين في خانة الناقد الثقافي نظرا للعلاقة الوطيدة بين مسيرته الفلسفية والفكرية ومفاهيم النقد الثقافي حيث "يتجلّى صراع الهويّات في الأقوال والمنطوقات التي تصدر عنهم في شتّى المواقف ومختلف الحوارات".(18)

تغدو القصص "الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمَرَة لتأكيد هويتها الخاصّة ووجود تاريخها الخاص".(19) وفي هذا السياق يتخذ السرد استراتيجية جديدة حيث يتمّ "تشكيل عالم متماسك متخيّل، تحاك ضمنه صور الذات عن

ماضيها...تنسج حكاية هي تاريخ الذات لنفسها وللعالم... وتدخل في هذه الحكاية مكوّنات الدين واللغة والعرق والأساطير والخبرة الشعبية". (20)

4/الأنا والآخر: جدلية المركز والهامش في التفكير النقدي الباختيني

تتميّز مفاهيم باختين حول تعدد الأصوات، والكرونوتوب، ومفهوم البطل بطابع النسبية وهذا ما جعل مقولاته تشكّل نصّ كليّا يحيل إلى بعضه في تناغم سرّي يشوبه التلميح الكتابة باسم مستعار لا التصريح "كأنّه يتمثّل بلاغة المقموعين".(21) ولعلّ ما يغري بقراءة نص ميخائيل باختين، حين يتخلّى عن دور الناقد والمنظّر الأدبي ويقمّص وجهة نظر الفيلسوف بحثا عن صورة الإنسان المتكامل الذي لا يفكّر "بالأفكار بل بوجهة النظر وبأشكال الوعي متعددة الأصوات".(22)

إنّ ما عاناه باختين من نفي واضطهاد وسجن كان دافعا إلى اهتمامه بالآخر والتعدديّة الصوتية والكرنفال، من حيث هي مفاهيم مميّزة لفن الرواية القادر على تمثّل تحوّلات الزمن وحراكات المجتمع، وكأنّ باختين كان يخلق من نصوص رابلي ودوستويفسكي تمثيلات للعالم الحرّ، أو معادلا عن الفردوس المفقود الذي نسجته مخيلته، وكأنه يتوق إلى أن يلتقي المتخيّل الذي صاغته رؤاه مع الواقع المؤلم الذي يعيشه، ليتحرّر من أسر خطاب ستالين الواحد. وهذا ما يجعلنا نقول: إنّ باختين يمثّل حقّا أنموذجا لناقد النفي، وأمّا مقولاته النظرية التي اقترحها فهي بمثابة النص البديل تمّ تحريرها لتفكيك صورة الآخر المستبد، ومواجهته بسياسته الإستعمارية محاولة منه لإسقاط القناع عن وجهه عبر منظور ما بعد كولونيالي مناهض.

وفي هذا السياق ندرك أهمية احتفاء باختين بالرواية بوصفها "تمثيلا لخطاب متعدد الأصوات" (23) أما احتفاؤه بالآخر هو "المركز القيمي للرؤية الفنية، ومن ثمّ للشخصية في العمل. فالآخر وحده يمكن أن يأخذ شكلا بصورة جوهرية "(24).

من هذا المنطلق يبدو الهاجس الذي استحوذ على فكر باختين المتمثّل في العلاقة بين الأنا والآخر من خلال تفاعل حواري والتعددية الصوتية في الخطاب الروائي والاهتمام بثقافات الهامش، وضرورة الوعي بصوت الآخر المختلف وضرورة اصطناع مسافة بين الذات والموضوع "فالفهم ليس مجرد عملية بين-ذاتية، بل علاقة بين ثقافتين، والتماهي دور أوليّ انتقالي فقط".(25)

تحمل الرواية وعدا بالحوار المتواصل بين الأنا والآخر بغية تذويب نبض ما بعد الكولونيالية (26) من خلال نقد المركزية الصوتية الواحدة ذات السلطة المهيمنة بأسلوب فيه الكثير من التهكم والسخرية والمفارقة من جهة، ومن جهة أخرى بخطاب مقنّع متعدّد اللغات(27). في سياق ثقافي اجتماعي رحب، فهويّة أيّ نصّ تحيل إلى هويّة شخصيّاته وأصواته، كما إنّ التعددية اللسانية التي كانت مدار بحث باختين في شعرية دوستويفسكي، هي كلام الآخر في لغة الآخر، "إنّ انقطاع الذات عن الآخرين وعزلها لنفسها وانغلاقها هي الأسباب الرئيسة لضياع الذات... أن نوجد يعني أن نتواصل أن نكون يعني أن نكون للآخر وبالنسبة له... ليس للإنسان أية أرضية داخلية مستقلة، إنّه على الدوام موجود على الهامش"(28) وحتّى يضمن باختين حياة الذات واستمرارها لابد أن تنخرط في علاقات حوارية هي التي أكّد باختين على أهميتها، حيث يقدّم تصوّرا محكما ومدروسا في النظرية الجمالية وللإبداع الفنّي، فيرى نفسه مدفوعا لتقديم تصوّر عام للوجود الإنساني حيث يلعب الآخر دورا حاسما، إذ من المستحيل حسب منظور باختين أن ندرك وجود أي كائن بصورة منفصلة عن علاقاته التي تربطه بالآخر التي تُشيَّد بوصفها كُلاّ يصوغه ويشكّله تفاعل دائم وحوار بين أشكال متعدّدة للوعي ومتناقضة أحيانا.

تتأكّد أهميّة الذات في علاقتها بالآخر في كتابات باختين في روايات دوستويفسكي، منظورا إليها "من مكان جدلية الدليل اللغوي كمفعول للبنيات المجتمعية، وهو من هنا يعالج عملية التحدّث من خلال ما يطلق عليه باختين مصطلح التفاعل

اللفظي، في أشكال الخطاب اللغوي، ومنه الخطاب الأدبي. فكلّ من الحوارية والتداخل النصّي يَنبنِيان على هذا التفاعل وفيه يتجسّد تكوينهما"(29).

يدعو ميخائيل باختين إلى ضرورة إلى إعادة قراءة الرواية من منظور أسلوبية مغايرة تقنرح وعيا بحوارية اللغة والمجتمع حيث لا يوجد نصّ مكتوب في شكل نهائي، فأي نصّ روائي ينبني على خلفية لا نهائية من الحوارات التي تنشأ بين اللغات. إنّ الخاصية الاجتماعية للّغة والتي أكسبتها طابعا هجينا يضع باختين في خانة النقاد ما بعد الكولونياليين، حيث تهدف الرواية متعدّدة الأصوات إلى نقض خطابات المركز المهيمن.

تقوم فلسفة اللغة المتعدّدة التي ركّز عليها باختين على أساس مفهوم الذات المتكلمة مرتبطة بعلاقات اجتماعية لا تعترف بهيمنة الصوت الواحد والرأي المستبدّ، إنّها رؤية ثقافية ما بعد حداثية تفسح المجال واسعا أمام حوارية لايمكن اختزالها عند حدود نصّ روائي فحسب، وإنّما أقل ما يقال عنها إنّها تتيح حوارية الثقافات المتناقضة بل حوارية العالم المترامي الأطراف، تجعلنا نعيد صياغة مفهوم الوعي بالذات التي تنشد تحرّرها من عقال الأزمات الراهنة من خلال اقتراح بديل يمحو الفوارق بين البنيات الاجتماعية وتعزيز الثقة فيما تقوله الذات وفيما تنجزه في مواجهتها أمام الآخر مهما اختلفت صوره، ومهما بلغ انتماؤه الرسمي، لتتراجع أشكال الخوف والإقصاء وتحلّ محلّهما مزايا الثقة تنظيرا وممارسة.

5/كرونوتوب مابعد الكولونيالية: متخيَّل الهويّات المسترجَعَة

تمتدّ مقاربة باختين للصراع الذي يمثّل أساس الفعل الحواري بين المتكلّمين -حسب منظوره الجمالي- إلى دراسة العلاقة المتداخلة بين مقولتي الزمان والمكان،وقد أطلق تسمية وقد أطلق على هذه العلاقة غير القابلة للفصل تسمية الكرونوتوب وعبّر من خلاله على التواشج الجوهري "بين هذين العنصرين اللذين تمّ استيعابهما في الأدب استيعابا فنيّا" (30).

استعار ميخائيل باختين مفهوم الكرونوتوب من حقل فيزياء آينشتاين، وكشف من خلال الترابطات الزمانية والمكانية الأبعاد التي تنطوي عليها العلاقة الجدلية بين الزمان والمكان، إذ يتمّ إدراك علاقات الإنسان وحياته ووجوده من خلال قراءة ما تبقي آثارها في المكان، ولا يتأتّى ذلك إلاّ من خلال إيقاظ الذاكرة لاسترجاع مخزونها الثقافي. لكن الذي يهمّنا في هذا المقام ليس الوقوف على مفهوم الكرونوتوب الذي اقترحه باختين من حيث هو مقولة زمانية-مكانية، وإنّما استنتاج شكل من أشكال الكرونوتوب يحمل أبعادا ثقافية وتتجسّد فيه دلالات ما بعد الكولونيالية. ومن هذا المنظور نطرح التساؤل الآتي: كيف يتجلّى الكرونوتوب في علاقته بمفهوم ما بعد الكولونيالية؟

أكّد باختين على أنّ الرواية ملفوظ يحيا ويتشكّل داخل وسط اجتماعي محدّد من خلال التعدّد اللغوي المتحاور، وأنّ كلّ ملفوظ حيّ يعود دلاليّا إلى لحظة تاريخية يحتضنه أفق اجتماعي. وعلى هذا الأساس فالعلاقات الكرونوتوبية تتجسّد من خلال التجابه الحواري بين الملفوظات ذات الطابع الاجتماعي والثقافي في الوقت نفسه، لذا يمكن استنتاج الحقيقة الثقافية للكرونوتوب.

تعكس كتابات باختين سيرته "التي ساد فصولها الكثير من سنوات النفي والانتقال الاضطراري من مكان إلى آخر في أراضي الاتحاد السوفياتي" (31) ،والتي تميزت بالمطاردات من قبل السلطة الستالينية، لذا نعثر على مفاهيم خصّها باختين بعناية واسعة في كتبه: الماركسية وفلسفة اللغة، رابلي وثقافة العصور الوسطى، وغيرها من المدوّنات التي أشار فيها إلى أهمية التعبير عن الذات من خلال الآخر. وفي هذا السياق تتقاطع صورة باختين المنفي بصورة باختين الناقد الحواري في فضاء النفي السياسي الذي كان سببا مباشرا لهذه الأفكار التي لا تمجّد الصوت الواحد، لتصير هذه المنظومة الفكرية كرونوتوب الكاتب

المنفي الذي وجد في الكتابة وطنه الثاني المتخيّل كما أشرنا سابقا."فالمنفى حال تنتقل فيها الذات قسرا من وطن أجبر على مغادرته إمّا لأسباب العرق أو الدين أو الجنسية أو نتيجة لآرائه السياسية"(32).

إنّ كتابة المنفى تنهض بالأساس على الذاكرة، لذا يتحقّق في العالم السردي المتخيَّل رؤى مزدوجة: وطن مفقود وآخر مستعاد، وزمان بعيد هو زمن السلب، وآخر تواجهه الذات المنفية. وعلى هذا الأساس يتحقق كرونوتوب النفي من حيث علاقة الزمان الماضي بالمكان المرتحَل عنه ومن هنا "تتخلّق للمنفى شعريته التي تؤكّد تضافر المكان والزمان، وتواشج الجغرافي والتاريخي".(33).

اهتمّ باختين بتعزيز العلاقة بين الزمان التاريخي في قراءته للكرونوتوب في العمل الروائي فهو يمنح فرصة اكتشاف مميزات المكان، كما يدلّ في الوقت نفسه على "البصمات المرئية لنشاط الإنسان المبدع التي تخلّفها يده وعقله في المدن والشوارع والمنازل والآثار الفنية والتقنية والبنية الاجتماعية"(34).

يلحّ باختين على دور الزمان التاريخي في معرفة حدود الثقافة الإنسانية التي تزخر بها الأمكنة التي أقام بها الإنسان، فالأمكنة القديمة التي يتحوّل معها الزمان من مجرّد بنية دالّة على الديمومة والاستمرار، إلى هوية اجتماعية تستمدّ وجودها من خلال المخزون الحضاري والإنساني الذي تضمره هذه الأمكنة ذات الطابع التاريخي داخل الفضاء الروائي. فالتمثيلات السردية تصل الأرض بالثقافة والتاريخ، واللغة والوجود وفق مقتضيات التشكيل الفني، ولايتوقّف عند هذا الحدّ بل يعاد تناول الحدث التاريخي بوصفه أحد التفاصيل التي تسهم في الكتابة التخييلية.

يمثّل الحدث الأقوى في حياة باختين تعرضه للإقصاء والنفي وقد وسم كتاباته محاولة استرداد ما أخذ منه عنوة: حرية التعبير والوطن، وهما يشكّلان أحد أسس هوية الكتّاب والمثقفين، فأي كاتب له انتماء مكاني وتاريخي وثقافي، فأهمّ ما تمثّله هذه الأقطاب من "قيم جمالية ثقافية هو كونها تتأرجح بين مفهومي "الدلالة والذكرى، حيث تتخلّق في المسافة بينهما جلّ الصور التمثيلية المتخيّلة للأوطان المفقودة والهويّات الجوّالة في عالم ما بعد الاستعمار الذي تتبوّأ في مرويّات المنفى موضع الصّدارة من حيث هي مرويّات مقاومَة ومقاوِمة في آن"(35).

إنّ حرص باختين على أهمية الحوارية بين أشكال الوعي متعدد الأصوات اعتمادا على مرجعية تؤمن بتجابه وجهات النظر المختلفة التي تعبّر عنها الذات من خلال اللغات المتعدّدة، هو قراءة سوسيو تاريخية للذاكرة في مقاومة، وسوف تتبدّى في فضاء هذه الذاكرة علامات كرونوتوب المنفى، حيث الزمان والمكان يواجهان التغيّر والتحوّل، وهو ردّ فعل ومقاومة ثقافية من قبل الأنا تجاه الآخر المهيمن الذي أضحى "تمثيله بالأجساد فعلا كرنفاليا ومشهدا احتفاليّا جمعيّا. وعلى هذا الأساس لا وجود لهوية ذات واحدة، بل يتعلّق الأمر بتاريخ ذوات مدفوعة لاسترجاع هوياتها.

تحيل رؤية باختين للعلاقات الكرونوتوبية في المتخيّل السردي إلى الصور التمثيليّة للأوطان المفقودة و"الهويّات الضائعة في عالم ما بعد الاستعمار" (36) وما ينجر عنها من قيم الشتات والاغتراب بشتّى أصنافه. فالزمن مرتدا إلى ماضي الذات يقف في مسافة التوتر بين ماهو ضائع وما يجب استرجاعه، فلا المكان يحافظ على ملامحه ولا الزمان يمكن إيقاف سطوته، لأنّ كرونوتوب المنفى بما يحمله من "الدلالة والقيم الإيديولوجية والثقافية يكاد يماثل رؤية العالم عند المنفيين، تلك الرؤية التي تتوزّع مفرداتها وتتناثر دلالاتها وقيمها عبر النص الروائي"(37)، هي خلاصة مسيرة البطل الذي تتجلّى أهميته فيما يتكلّم -حسب المنظور الجمالي والثقافي الباختيني- وكلامه المشحون بكلام الآخر.

خاتمة

تجدر الإشارة إلى أنّ الميزة التي جعلت ميخائيل باختين يستأثر بقراءات الكتّاب العرب ناقدا ومفكّرا وفيلسوفا، هي أنّه قدّم صورة الكاتب الإشكالي انطلاقا من حياته وصولا إلى كتاباته التي هي في الحقيقة الوجه الآخر لحياته. فهو مؤسّسة نقدية وفكرية صارت نغذّي نقاشات الكثير ممن اهتموا بأفكاره.

إنّ قراءتنا لأطروحات باختين النقدية التي تنخرط في مدارات النقد ما بعد الكولونيالي، هي بمثابة تأكيد على أهمية الإنجاز الذي حقّقه في مجالات عديدة، مثل نظرية الأدب وفلسفة اللغة وعلم النفس والسرد الروائي. وهو في الوقت نفسه مغامرة قرأت النص الباختيني المتعدّد والمقاوم في الوقت نفسه، لا حدود بينه وبين الكتابة المضادة في إصرارها على تقويض الفكر الاستبدادي من جهة ومن جهة أخرى بوصفها إمكانية لتفكيك الخطابات الرسمية للآخر وكشف القناع عن الأنساق المضمرة التي تختفي وراء كلماته.

استوعب باختين أهمية الكلمة /الصوت الصادر عن الإنسان الذي يتكلّم ويسعى لتحقيق وجوده ليس على المستوى الجمالي الفني فحسب، وإنما على المستوى العلاقات الاجتماعية الواقعية، فالذات العربية المعاصرة تعيش رهن تحوّلات تاريخية وانكسارات اجتماعية وثقافية توالت عليها الحروب والأزمات السياسية وعانت كثيرا من وطأة الإستعمار بعد الحربين العالميتين وبعد نكبة فلسطين 1967، حيث لا يزال تحت طائلة مختلف أشكال الشتات والهجرة الجماعية والنفي القسري. لذا ما أحوجنا إلى تأمّل الإنتاج الفكري الضخم الذي تركه كبار النقاد والمفكّرين وتمعّن القضايا التي تتصل بواقع الإنسان المعاصر، لتحديد موقع الذات العربية خاصة والشعوب المستعمرة التي سلبها الإستعمار حريتها، لاسترجاع هويتها وانتمائها، من خلال إنتاج خطاب ثقافي بديل بعيدا عن التعصّب والأنانية يأخذ بالخصوصية الإنسانية أولا وأخيرا.

هوامش:

(*)أخذ التعددية الصوتية من فن الموسيقى، والكرونوتوب من الفيزياء، ومفهوم البطل من المسرح. ولم يتوقف باختين عند حدود الاستعارة من هذه المعارف فحسب، بل احتفى جهازه المفاهيمي باستبصارات نقدية حول السلطة والنص والتمثيل الروائي ورؤية الآخر.

(*) نسبة إلى السياسي والمفكّر اندريه اليكسندروفيتش ممثل عن الجناح الثقافي في الحزب الشيوعي إبان الحقبة الستالينية، كان عسكريّا ودبلوماسيا لعب دورا كبيرا في معركة لينينغراد. بعد الحرب تنبّأ جدانوف بالصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي فطرح مبدأه المشهور مبدأ جيدانوف الذي ينصّ على تسخير كلّ الإمكانات الفنية من أدب وموسيقى لمواجهة الثقافة البرجوازية)

(1) ميخائيل باختين، فصل الخطاب الروائي، تر/محمد برادة، رؤية للنشر والتوزيع، 2009،،ص107.

(2)المصدر نفسه،ص108

(3) المصدر نفسه ،ص109

(4) المصدر نفسه ،ص109

(*)أبرز أقطاب هذه الحركة المثقفة الهندية جاياتري سبيفاك من خلال الدراسة التي قدّمتها حول: هل يستطيع التابع أن يتكلّم، وقد بحثت في خصائص الخضوع والتابعية التي مست سكان جنوب آسيا وتساءلت حول إمكانية التابع من الحديث وإسماع الآخر صوته. يستعمل أونطونيو غرامشي مصطلح الهيمنة ليشير إلى الطريقة التي تتمكّن بها الجماعات المتسيّدة في المجتمع عبر عملية القيادة الفكرية والأخلاقية من كسب موافقة الجماعات الخاضعة في المجتمع وفي السياق نفسه يرى إدوارد سعيد أنّ كلّ هيمنة تحمل في طياتها عناصر مقاومتها والتصدّي لها، فأغلب الثقافات تسعى إلى الهيمنة على الآخر إمّا باللجوء إلى ممارسة العنف المادي باستخدام قوّة اليد أو السلاح.

(5) ميخائيل باختين، فصل الخطاب الروائي،ص110

(6)المصدر نفسه،ص112،111.

(7)Voir : Mikhail Bakhtine, L’œuvre de Francois Rablais et la culture populaire au moyen age et sous la renaissance, traduction d’andree robel, Paris, Gallimard, 1970, P12.

.(8) Mikhail Bakhtine. Esthetique et theorie du roman. Traduit du Russe par : Daria olivier. Preface de michel acouturier. Edition Gallimard. 1978, p127

(9) يمنى العيد، أضواء على الكرونوتوب والنسق الدلالي في نظرية باختين للرواية. مقال ضمن كتاب: في مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية، إعداد وتقديم: محمد دكروب، دار الفارابي، بيروت، ط1 2005، ص64.

(10)Voir :Mikhail Bakhtine. Esthetique et theorie du roman. P378

Ibid. p378.(11)

(12) محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، رؤية للنشر، القاهرة، ط2، ص108.

(13) محمد الشحات، سرديّات المنفى، ص50.

(14)المرجع نفسه، ص44

(15) المرجع نفسه، ص44

(16) Voir :Mikhail Bakhtine. Esthetique et theorie du roman. P378

(17) ميخائيل باختين، جمالية ونظرية الرواية، فصل الخطاب الروائي، تر/ محمد برادة ص50

(18)إبراهيم خليل، أساسيات الرواية، فضاءات للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، ط1، 2015، ص218.

(19)إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية،تر/كمال أبو ذيب، دار الآداب، بيروت، ط3، 2004، ص17.

(20)المرجع نفسه، ص16،17

(21) محمد الشحات، سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام1967، دار أزمنة للنشر، عمان ص48

(22)ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، تر/جميل نصيف التكريتي، مراجعة/حياة شرارة، توبقال، الدار البيضاء، ط1، ص177.

(23)المصدر نفسه، ص10،11

(24) تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر/فخري صالح، ص222.

(25) المرجع نفسه، ص239، 242.

(26) ينظر: بيل آشكروفت، جاريت جيريفيثيز هلين تيفين. الإمبراطورية الردّ بالكتابة: آداب ما بعد، النظرية والتطبيق ترجمة وتقديم خيري دومة، أزمنة للنشر، الأردن، ط1، 2005، ص

(27).ينظر: ميخائيل باختين، جمالية ونظرية الرواية، فصل الخطاب الروائي، تر/ محمد برادة ص127

(28) ينظر: تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر/فخري صالح، ص179

(29)ميخائيل باختين، مقدمة:الماركسية وفلسفة اللغة، تر/محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،ط1، 1986، ص6

(30) Mikhail Bakhtine. Esthetique et theorie du roman. P273

(31)مقدمة المبدأ الحواري، ص6.

(32) محمد الشحات، سرديات المنفى، ص66.

(33)المرجع نفسه، ص25.

(34)Mikhail Bakhtine. Esthetique de la creation verale,p232

(35). محمد الشحات، سرديات المنفى ص104.

(36) المرجع نفسه، ص104

(37) المرجع نفسه، ص 104